## مظفر النواب مجهولاً ومظلوماً

معن البياري

تسأل المذيعة في التلفزيون السوري ضيفها في الاستوديو، مظفر النواب، عن سبب عدم زواجه، فيجيب إنه اختار هذا حمايةً لأبناءٍ قد ينجبهم من عسف الطغيان في بلده العراق. كان هذا في مقابلةٍ معه، أظنها الوحيدة التي استُضيف فيها على شاشة التلفزيون السوري، في عام بعيدٍ من الثمانينيات. ولا تُفتتح هذه المقالة المحبّة للشاعر الكبير حقا، بالعامي وبعض الفصيح، بتلك الواقعة، للتجريح به، وإنما للقول إن الصورة الذائعة عن صاحب الوتريات الليلية تحتاج إلى شيء من الواقعية، أي تنزيل الرجل من علياءٍ ثوريّة إلى إنسانٍ شاعرٍ وحسب، له سقطاتُه، البائسة مثل تلك على شاشة حافظ الأسد، ومثل تغنّيه بجهيمان العتيبي (مثليْن لا غير، وثمّة غيرهما)، كما له من حميد الأوصاف كثير، فهو الزاهد القنوع، النائي عن الأضواء والمهرجانيات، الفقير الغني النفس، الذي لم يسقُط يوما في مديح نفعي لأي رئيسٍ أو وزير أو حاكم. وكان في وسعه أن يعيش في ظروفٍ أحسن، سيما في العشرين عاما الماضية، في مواقع محترمة، غير أنه آثر الانسحاب إلى عزلته وصمته، واكتفى بحدودٍ دنيا من العيش الكريم، من دون أن يتزلّف لأحدٍ أو يتملّق شيخا أو رئيسا أو مسؤولا.

تزدحم في حياة الشاعر، بل وفي مماتِه أيضا، مفارقات حادّة، قد لا يخصُّ كثير منها ما يتعلق بشخصه وحسب، من قبيل مواساة السفارة الأميركية في بغداد الشعب العراقي في وفاته، وتسميتها له شاعرا بارزا، وهو الذي أقام على يساريةٍ عتيقةٍ ظلت فيه، وكان مناضلا شيوعيا في شبابه. ومن قبيل إقامته في خريف عمره في الشارقة التي لقي فيها كل اهتمام، وقد أنفق بعض شعره في هجاء دول الخليج وحكامها. غير أن المفارقة الأهم، والأوضح أن الشاعر الراحل أخيرا عن 88 عاما كان مشهورا ومجهولا في آن، ما يجعله مظلوما لا شك. يختزله قرّاء محبّون له ولشعره، ومخاصمون له، في بضع قصائد شتّامة هجائية، ذاعت في شريطي كاسيت قبل أزيد من أربعة عقود، وسمعها بعض العتاقى في أمسياتٍ ومناسباتٍ في بيروت ودمشق وطرابلس ولندن (وغيرها)، وحفظ كثيرون مقاطع شهيرة من قصيدتين أو ثلاث له، وتردّدت وصارت كأنها علامات دالة عليه، من دون أن يأخذ شعرُه العريض (كل الحديث هنا عنه شاعرا فصيحا) حقه في القراءة المعتادة، في التعرّف عليه في عمومه، فمظفر النواب شاعر غزلٍ مجيد، شاعر حبّ، وأظنه هنا بالضبط كان شاعرا كبيرا وصانع صورة وعبارة مبتكرة. وأبدا لم يكن شاعرا مهما في قصائده ذات البذاءات الجريئة، والشجاعة التي لا بد مقدّرة. طُبعت دواوينه (كم عددها؟) ولم توزّع جيدا، لا تلقاها إلا نادرا جدا، في معارض الكتب. وقيل إن ثمّة طبعات مزوّرة مشوهة لها. كما أن شعره حُرم من إضاءات درس نقدي لها، بل حتى من المتابعات الصحافية السيّارة. عدا عن هذا وذاك، لم يُحاوَر مظفر النواب في مقابلات صحافية كافية، وذات قيمة، يتحدّث فيها عن تجربته في كتابته قصيدته، عن مصادر ثقافته الشعرية، عن تصوّراته الفنية والجمالية. وها نحن نقرأ لذوّاقةٍ ذوي درايةٍ في الشعر والأدب يكتبون أن مظفر النواب شاعر صورة، شاعرا سيابيا في عاميّ شعره. وهذا جديد، لم نطالعه سابقا، أقلّه لم نصادفه في متابعاتٍ تحليليةٍ، نقدية، ناقدة، جدّية وجادة.

يزيد من صفة مظفر النواب شاعرا مجهولا الحبْس الذي وضعه الجميع فيه، أنه شاعرٌ ثوري. وهذا صحيحٌ في شطر بعيد من حياته، غير أنه يُظلم إذا أبقيناه في تصنيفٍ كهذا، وها هم ناقدون له، محقّون على ما أؤكد هنا، يؤاخذونه على ما كان منتظرا أن يقوله، في شأن ثوراتٍ قامت ونهضت بها شعوبٌ في السنوات العشر الماضية، وفي شأن جرائم يرتكبها غير نظام عربي، السوري مثلا. مع التسليم بداهةً بأن مظفّر لم يكن داعية سياسيا، ولا ناشطا حزبيا، ولا مفكّرا عقائديا، وإنما صفتُه تلك تجيز انتقادَه (أو محاسبته؟) في هذا المطرح.

خسارةٌ كبرى أن مظفر النواب لم يكتب (ولم ينشر) مذكراتٍ أو ذكرياتٍ أو يوميات. ولم تتوجّه إليه الصحافة بهذا المطلب، أو ربما هو من استنكف. لو فعلها وكتب لأفصح عن نفسه أكثر، عن أطوار حياته، عن العراق وسورية وليبيا والخليج وأوروبا، وعما أحدثته تصاريف الزمن فيه. .. ستكون مفاجأة أكثر من سارّة لو عثر قريبون منه على نصوصٍ بثّ فيها لواعج منه، لربما أسعفتنا بمعرفةٍ أوضح به، ربما.

## العراق وخيارات أزمته السياسية

إياد الدليمي

لا يبدو أن لدى كلا طرفي الأزمة في العراق، التيار الصدري والإطار التنسيقي، الرغبة في وضع حد ونهاية لحالة الانسداد السياسي التي يعاني منها البلد، في ظل تمسك كليهما بالآلية التي يعتقد أنها الأفضل لتشكيل حكومة جديدة، بعد قرابة سبعة أشهر من الانتخابات التشريعية. دخلا (التيار والإطار) منذ تلك الانتخابات، في أكتوبر/ تشرين الأول الماضي، مرحلة جديدة في التعاطي السياسي الذي يبدو أنه خرج عن مألوف العملية السياسية، التي كانت تسير وتتماشى وفقا لالتزامات وتوافقات، كلها انكسرت في لحظة خلافٍ شديدٍ بين مقتدى الصدر وشركائه السياسيين عقب الانتخابات، ما أدخل معهم العراق في ظل أزمةٍ سياسيةٍ وانسدادٍ ربما غير مسبوق. تدرك الطبقة السياسية في العراق أن التوافق الذي كان حاكما فاعلا لمسيرة العملية السياسية انتهى من غير رجعة، حتى وإن بدا بعضهم يروج إمكانية التوافق بين الطرفين الشيعيين، فلا الصدر يمكن له أن يقبل بالتوافق مع الإطار التنسيقي، ولا الأخير سيقبل أن يكون تابعا لحكومة صدرية، لتكون الأزمة الحالية عاصفة، بطريقة أو بأخرى، لبقايا عملية سياسية ولدت منذ يومها الأول عرجاء كسيحة.

تبدو حظوظ مقتدى الصدر للمضي باتجاه تحقيق حكومة الأغلبية الوطنية، لا التوافقية، أكبر، فهو يستند إلى شعبيةٍ جارفةٍ مؤمنةٍ به، وأيضا تحالف مع قوى وأطراف أخرى في العملية السياسية من خارج منظومة البيت السياسي الشيعي. والإشارة هنا إلى تحالف السيادة بزعامة رئيس البرلمان محمد الحلبوسي، وأيضا الطرف الكردي الأقوى والتمثل بالحزب الديمقراطي الكردستاني بزعامة مسعود البارزاني. في المقابل، تبدو قدرة الإطار التنسيقي على المضي في تعطيل حكومة الأغلبية الوطنية تستند، بالأساس، إلى دعم إيراني كبير يسهم، من وقت إلى آخر، في تحقيق الضغوط المطلوبة على مختلف القوى المتحالفة مع مقتدى الصدر، من أجل كبح جماح التحالف الساعي إلى تشكيل حكومة أغلبية وطنية. وبينما تتصارع القوى السياسية في العراق بحثا عن مصالحها ومصالح رعاتها، تبدو في خلفية المشهد صورة قاتمة بطلها الشعب العراقي، الذي يبدو أنه ينام على فوهة بركانٍ غاضبٍ بانتظار الشرارة التي يمكن أن تشعلَ الأخضر واليابس. قال وزير المالية العراقي علي علاوي، في تصريح متلفز قبل أيام، إن الفائض المالي للعراق يمكن أن يصل في نهاية العام الجاري إلى نحو 40 مليار دولار، مستفيدا من الطفرة في أسعار النفط، وأيضا من سماح منظمة أوبك للعراق بأن يصدّر ما مجموعه 4,5 ملايين برميل يوميا. ولكن هذا الفائض المالي لا يجد له أي طريق إلى واقع الخدمات المقدّمة للعراقيين، فمنذ أيام والشبكة الكهربائية تعاني من انقطاعات متكرّرة، وزادت ساعات القطع الكهربائي اليومي في أجواء صيفية حارّة ومغبرة أيضا، والسبب أن إيران قطعت جزءا من إمدادات الغاز عن العراق جرّاء تخلفه عن دفع مليار وستمائة مليون دولار مستحقات لإيران. يشير ذلك كله إلى أن هناك بوادر ثورة قادمة، قد تنجح الطبقة الحاكمة، بحكومتها ومليشياتها، في إخمادها كما فعلت مع انتفاضة تشرين، ولكن المؤكّد أن بقاء الطبقة السياسية في العراق تتصارع على تشكيل حكومة جديدة من دون الالتفات إلى مصالح شعبها، سيعجّل بهذه الثورة، وسيدفع إلى مزيد من التصادم بين الطبقة السياسية والأحزاب من جهة وبين الشعب. وقد طال الانسداد السياسي في العراق أكثر من المتوقع، ولا يبدو أن خياراتٍ تلوح في الأفق، فهل سنشهد تفاهما يُخرج الطبقة السياسية من أزمتها من دون أن يخرج معه العراق؟ أم للشعب رأي آخر؟

(كاتب عراقي)

## إدريس غي... الكفاح الإنساني للإسلام الأفريقي

مهنا الحبيل

من الخطأ بمكان أن يُنظر إلى قضية اللاعب السنغالي الدولي، إدريس غانا غي، والمحترف في نادي باريس سان جرمان، بأنها فقط حادثة مرتبطة بالموقف المناهض والمعادي له، بسبب رفضه الشخصي دعم الحياة المثلية ضد الأسرة الفطرية للإنسانية، فهذه الحادثة كانت تُخفي وراءها كتلة تطرّف ضخمة في موقف الكولونيالية الثقافية البديل عن الكولونيالية الاستعمارية، فهي هنا حالة اصطدام بجدار التطرّف الفرنسي الذي تطوّر كثيراً موقفه المناهض للإنسان الآخر، خارج القومية الغربية بإرثيها، المسيحي والليبرالي، وتُرجم ذلك في الحياة السياسية والاجتماعية في فرنسا، من رئاسة الجمهورية إلى الصحف الشعبية. .. وأفكار هذا المقال تتضمنها النقاط التالية:

أولا، رَفض إدريس غي المشاركة في مباراة مؤدلجة لدعم المثليين، ولم يُعلن موقفه ببيان، ولم يتخذ موقفاً هجومياً مباشراً من هذه المشاركة، لكن الآلة الإعلامية والثقافية الضخمة في المركز الغربي شنت عليه حملةً شرسة، وصلت إلى المطالبة بالتحقيق معه، وأُخضع اللاعب لحملة ترهيب واسعة، خشيةً من أن يُفسّر موقفه تبنيا صريحا لحقه الشخصي المقطوع به في الإسلام تجاه المثلية.

ثانيا، تطوّرت القضية في الاتجاه المعاكس لأصحاب الحملة، وفي مركزهم العالمي، فإعلان الرئيس السنغالي دعم موقف إدريس غي، في حق فردي أساسي من حقوق الإنسان، أُتبع بحملة تضامن عالمية مع النجم السنغالي الذي كان يُظهر شعائره وروحه الإسلامية، كرابطة أخلاقية وهوية ثقافية أصيلة، في وجدان السنغال وفي أفريقيا السمراء.

ثالثا، يبرز لنا هنا بالضرورة الوجه الكولونيالي لاستخدام المثلية القهرية، وتؤكد هذه الحادثة صحة استخدام هذا المصطلح (القهر) هنا، فما يجري على مستوى التشريعات الغربية، والضخ الإعلامي والتوظيف الدولي للظاهرة المثلية، ليسا مرتبطين بطبائع أو سلوك يطرآن على الفتيان أو الفتيات، وإنما هو برنامجٌ ضخم، تديره القوة الرأسمالية نفسها، وتُروّجه في كل وسائطها، وتفرضه على القيم الإنسانية، وبالذات في عالم الجنوب الذي لم تتمكن منه الظاهرة.

رابعا، وعلى الرغم من أن هناك حالة ضيق في الغرب ذاته، وتذمّر من العسف القانوني العنيف، أو إخضاع الأطفال للتشكيك في هوياتهم الجنسانية مبكراً، وغير ذلك من صناعة الأجواء المحمومة حول المجتمعات، وفي كل مساحة ثقافية وسياسية، إلا أن مجرد ممارسة الحرية الفكرية والتربوية المخالفة للمثلية أصبح محل ترصّد ومتابعة من المشروع الكولونيالي، والذي يهمنا هنا وضعه في سياقه العلني، خلافاً لذلك التضليل الضخم، الذي يقدّم هذه الثقافة ضمن أقليات التعدّد، فهي، بحسب الواقع، باتت أداة لصالح الإمبريالية الثقافية الجديدة.

خامسا، وعليه، كانت خطوة إدريس غي مستفزّة للفرع الفرنسي لهذه القوة التي أرادت تأديبه، وقمع أي مساحة حريةٍ قيميةٍ، يتمسّك بها الإنسان الحر الآخر، الذي لم يخضع لماكينة الغرب السلوكية ونمط سوقها، فلا يجرؤ أحدٌ على رفض هذا القهر المثلي، وخصوصا في مساحات الضوء المفتوحة على كل الناس، وهي رياضة كرة القدم التي تصل إلى مواقع واسعة، وتربط هذا العالم، وبالتالي تتداخل مع السوق الوظيفي الضخم للرأسمالية العالمية، فقوبل إدريس بذلك الهجوم.

الحديث هنا عن مفهوم الإسلام الأفريقي، الذي ردّ من خلاله إدريس غي على حملة الشيطنة، ولا يُقصد به أن هناك إسلامات متعدّدة، ولكنّ الحقيقة أن طبيعة هذه الرسالة وقوتها الفكرية المتجدّدة في عالم اليوم، رغم كل الفشل الأخلاقي في الشرق، والنماذج المسيئة لصورة الرسالة الإسلامية، إلا أن هذا الجوهر الإيماني الفلسفي، يتمكّن من وجدان لاعب كرة القدم كما هو عقل المثقفين وتحريرات العلماء، ومساحة الجدل الفلسفي الذي تشارك به أفريقيا. ومع الأسف، جسور التعاضد والتكامل ضعفت كثيراً بين العرب وشركاء القيم والرسالة، بين ضفتي آسيا وأفريقيا.

> نظرية القوة التي لا تزال أجيال من فلاسفتها وطلبتها تُدرسها وتعيد تقليدها وتهمش على هامشها هي اليوم وسيطة عنف خطير

وحين نقول شركاء القيم نعني بهم غير المسلمين من الأفارقة، والذين لا يزالون يتمسّكون بروح الإنسان المستقلة التي ترفض احتلال الذات الفردية في عالم الجنوب، وتسليمها وتسبيحها لليبرالية الإمبريالية في الغرب، وكل مذاهبها السلوكية والاستهلاكية، بل إننا نعجب اليوم من أن حالة الانجراف العربي، المناهضة للإسلام بوصفه رسالة، وليس الصراع مع الإسلاميين الحزبيين، والكارهة لروحه الأخلاقية الفكرية في وجدان الشعوب، تتمكّن في بلدان عربية أفريقية، في حين يَرفض الكفاح الإنساني للأفارقة المسلمين فرضها على حياتهم اليوم.

يقوم هذا الصوت الثوري الحقوقي على أضلاع أساسية، أولها طبيعة روح الإسلام المذهلة التي يتّحد عليها العقل الإنساني والقيم المشتركة السلوكية والفكرية للخليقة، وهي تحمل طاقة ممانعةٍ صلبةٍ لصدّ شركات الحداثة الضخمة، ومنعها من تأميم الحرية الإنسانية، خصوصا أن هذه الشركات الرأسمالية الكبرى هي القوة العميقة التي تسطو على الناس وتقهرهم. ولكن انتصار الفكرة الإسلامية لا يزال يصنع جسوره، من دون جدران فصل عنصري، فوصول القيمة الفكرية والتفسير الروحي والعمراني لا يزال متصلاً وحاضراً، حتى في حياة الغربيين، وبالذات من ذوي الفكر والتأمل، بل أضحى الإسلام القوة المتبقية الوحيدة لحماية الفطرة الإنسانية، والقدرة الجدلية الفلسفية لتفكيك ميراث سطوة القوة التي تتجدّد في عالمنا اليوم، ولم توقفها فسلفة فوكو إطلاقاً، بل أُعيد استيعاب جدله في داخل هذه «الميكنة»، وبات مذهبه الجنساني وسيلةً للقهر في القوة العالمية الإمبريالية.

ويا لها من مفارقة، أن نظرية القوة التي لا تزال أجيال من فلاسفتها وطلبتها تُدرسها وتعيد تقليدها وتهمش على هامشها، هي اليوم وسيطة عنف خطير يفرض على الإنسانية، ويُتوارث التدثر بها وتقديمها في ثوب أكاديميٍّ قشيب، ورغم كل مؤلفات التقديس العربية وغيرها من عالم الجنوب لإعادة تدويرها البائس، إلا أنها تعلن فشلها لذات القوة الإمبريالية، هنا الفارق بين هياكل التدوير لأزمة الفلسفة الغربية ومنائر التحرير المستقلة المقموعة لفلسفة المعرفة الإسلامية التي تبعث وجدان المضطهدين، لتصعد قوة الفكرة لمواجهة فكر القوة.

(كاتب عربي في كندا)

### كاريكاتير

عماد حجاج

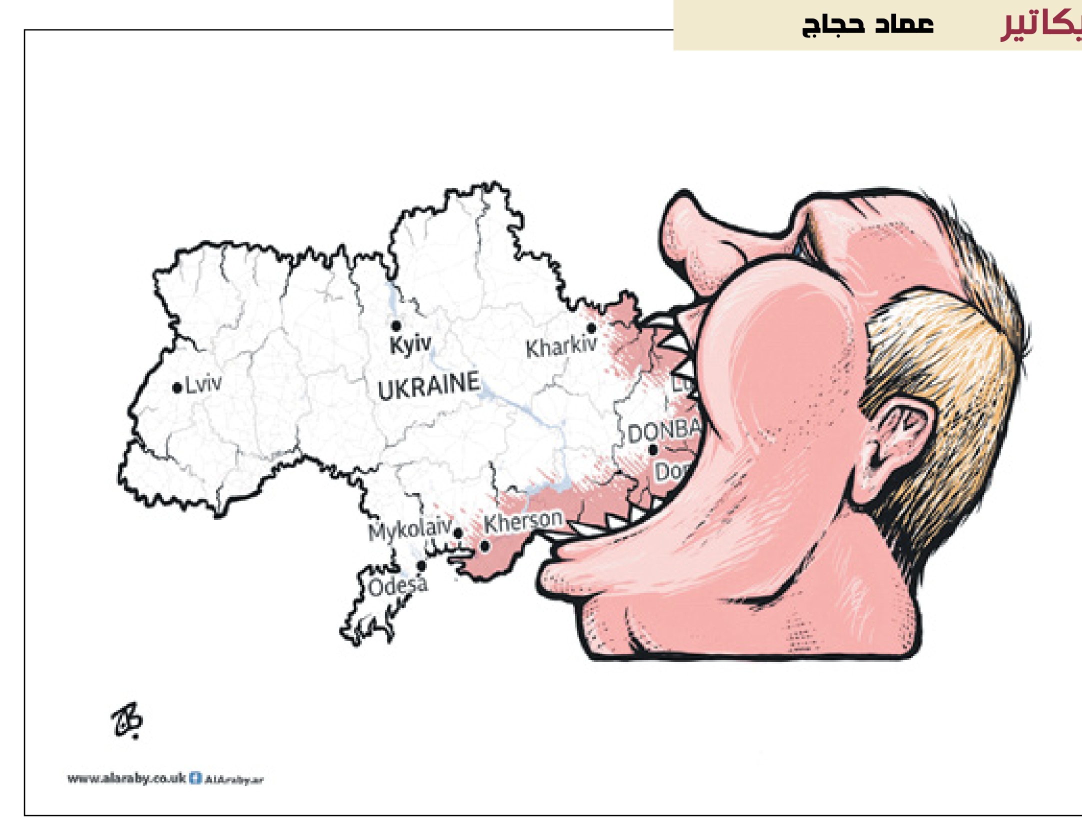


## مسلمو تتارستان الروس... جدل الهوية والسياسة

محمد أبو رمان

لا تختلف العاصمة التتارية - الروسية قازان، في مشهدها العام، عن أيّ عاصمة أوروبية أخرى، من حيث التنظيم والترتيب والحداثة والمستوى المتطوّر للمواصلات؛ وإن كان الفرق الوحيد الواضح كثرة المساجد والقباب والمآذن التي تجاور بصورة لافتة للانتباه الكنائس، وتبدو (الكنائس) وكأنّها جزء من الهوية المعمارية والثقافية والمجتمعية العامة.

بدت قازان بمثابة جسر للتواصل الديني والحضاري، كما أرادها الروس، خلال مؤتمر روسيا والعالم الإسلامي في دورته الجديدة في المدينة (19-20 مايو/ أيار 2022)، وقد تزامن ذلك مع ذكرى مرور ألف ومائة عام على دخول سكان المنطقة البلغار في الفولغا الإسلام، بالتزامن مع اجتماع مجموعة الرؤية الاستراتيجية التي تبحث في سبل تطوير قنوات الحوار بين روسيا والعالم الإسلامي. وأقيم معرض قازان إكسبو تحت شعار «حلال»؛ والمقصود توسيع كلمة حلال (تستخدم عند المسلمين في الغرب في المطاعم)، لتصبح شاملة أنشطة وأفكاراً ومفاهيم عديدة يمكن أن تجمع الفكرين، الإسلامي والغربي بخاصة الروسي.

كان واضحاً خلال الاجتماع طغيان المظاهر الدينية والحضور البارز لعلماء الدين، من الجانبين، الإسلامي (والعربي) والروسي، من المؤسسات الدينية الروسية عامة، والتتارية بخاصة، فبدأ الاجتماع الرئيس لمجموعة الرؤية الاستراتيجية بحضور نائب وزير الخارجية الروسي وحاكم تتارستان، رستم مينيخانوف، ثم كلمات لرؤساء المؤسسات الدينية الروسية، طلعت صفا تاج الدين وراوي عين الدين (وكلاهما من أصول تتارية)، وبدا الاهتمام الروسي كبيراً بالشخصيات الدينية العربية والإسلامية، من الشيعة والسنة، فضلاً عن وضع حجر الأساس لأكبر جامع في قازان (جامع قازان الكبير).

توقيت الاجتماع وطبيعته وموضوعاته تعكس حرصاً روسياً على تجسير العلاقات مع المسلمين والعالم الإسلامي، في ظل حالة العزلة التي تحاول أن تفرضها الولايات المتحدة وأوروبا على روسيا، مع الحرب الأوكرانية، لكن ما هو أكثر دلالة أنّ هنالك مشاركة عربية رسمية واضحة، بخاصة من السعودية والإمارات. ثمّة ما يشكّل ما هو أعمق مما يطفو على السطح؛ وأقصد هنا تحديداً «النمط الديني الجديد»، الذي يتم تكريسه في الجمهورية التتارية، سواء في الداخل التتاري أو في العلاقة بين الجمهورية الإسلامية، التي تحظى بشبه حكم ذاتي، والحكومة الفدرالية الروسية التي تخلت عن ثوب الشيوعية، وارتدت اليوم ثوب القومية الروسية ذات الأعراق والثقافات والديانات المتنوعة والمتعدّدة.

كان ملاحظاً في الاجتماع أنّ هناك حضوراً قوياً للهوية الإسلامية، وهي التي لا تخطئها عندما تتجول في أرجاء قازان، وتلتقي بعدد من المسلمين فيها، فتجدهم يفتخرون كثيراً بتاريخهم الإسلامي، بل ويعرفون عن الكتاب الشهير «رحلة بن فضلان» (الرحالة العربي الذي أرسله الخليفة المقتدر لتعليم أهالي تلك المنطقة الإسلام، فألف كتاباً يعدّ من أشهر الكتب التي تقدم صورة مجتمعية وثقافية عن سكان المنطقة في تلك المرحلة) ويعتزّون بالرموز الإسلامية، فهنالك اعتزاز كبير واحترام وتقدير للشيخ شهاب الدين مرجاني، الذي يعدّ أحد أهم الأساتذة المسلمين هناك في القرن التاسع عشر، كما أنّك ترى حضوراً ملحوظاً في حديث عديدين منهم للإمبراطورة الروسية (ذات الأصول الألمانية في القرن الثامن عشر) كاترين الثانية، لأنّها سمحت للمسلمين هناك بإعادة بناء المساجد، بعد تدميرها منذ القرن السادس عشر.

> لا تطابق كاملاً بين النموذجين، التتاري والتركي

المهم أنّنا أمام نموذج لافت من التدين أو الإسلام يزاوج ما بين الهوية الدينية بوصفها مكوناً تاريخياً وثقافياً وفكرياً ورمزياً وجزءاً من الهوية التتارية (تعدّ جزءاً من الهوية الروسية القومية الكبرى) والسياسات العلمانية، التتارية والروسية، ونموذج من التفاعل ما بين التقاليد والحداثة، المساجد والكنائس في جوار الشركات الكبرى والعملاقة.

لا نذهب هنا إلى تقييم أو إصدار أحكام بقدر ما هو الهدف الإشارة إلى هذا النموذج المختلف عن أنماط الإسلام السياسي المعروفة في العالم العربي، أو حتى الإسلام الرسمي الذي له حضور في المساجد والأماكن الدينية، أو حالة الصراع العضال الملحوظ في العالم العربي ما بين الدين والحداثة. ولعلّ المقابلة التي تلحظها في أحاديث بعض التتاريين تكمن مع الشيشان الذين اختاروا، بعد انهيار الاتحاد السوفييتي، الصدام مع روسيا الاتحادية، للوصول إلى الاستقلال الكامل، بينما اختار ساسة تتارستان التفاوض، والحصول على مكتسبات، ما جنّب البلاد حرباً كبيرة ودماراً هائلاً كما حدث في الشيشان.

(كاتب ووزير أردني سابق)

## حين تنتصر الرمزية الفلسطينية

أحمد الجندي

بات سقوط الحكومة الإسرائيلية الائتلافية، المكونة من ثمانية أحزاب مختلفة المرجعيات الأيديولوجية، أقرب من أي وقت مضى؛ فخلال الأسابيع الماضية، تلقت ضربتين موجعتين. أولاهما حين استقالت عضو الائتلاف الحاكم عن حزب يمينا، عيديت سليمان، من الحكومة وقرّرت الانضمام إلى حزب الليكود، على أثر سماح الحكومة بإدخال الخبز المختمر إلى المستشفيات الحكومية خلال عيد الفصح، وهو ما يخالف أحكام الشريعة اليهودية التي تتمسّك بها سليمان بشدة، والتي دفعتها إلى الانسحاب من الحكومة، ليتقلص حينها أعضاء الائتلاف إلى 60 عضوا فحسب. الضربة الثانية، وهي الأقوى، وغالبا ما ستكون المسمار الأخير في نعش هذه الحكومة، حدثت حين أعلنت غيداء زعبي، وهي من فلسطينيي 48 وعضو الائتلاف عن حركة ميرتس، في بيان لها، عن انسحابها من الائتلاف نتيجة جملة من الاعتراضات على الحكومة الإسرائيلية وتصرّفاتها، أهمها ما قامت به الشرطة الإسرائيلية في جنازة الإعلامية الفلسطينية شيرين أبو عاقلة، يوم تشييع جنازتها، بعد أن قتلت على يد قناص إسرائيلي في أثناء تغطيتها محاولات اقتحام قوات جيش الاحتلال مدينة جنين الفلسطينية.

يمتلئ مشهد الأيام الماضية، منذ محاولة اقتحام جنين، مرورا بمقتل شيرين أبو عاقلة والاعتداء على جنازتها، وصولا إلى استقالة غيداء زعبي وزيادة احتمالات سقوط الحكومة الإسرائيلية، برمزيات عدة. ..وجنين هي الرمزية الأولى والأقدم، فلطالما اعتبرت إسرائيل منطقة جنين، من بين مناطق الضفة الغربية، كلها رأس الحربة للإرهاب والفوضى، وفقا للمصطلح الإسرائيلي، في الضفة الغربية؛ ثمّة أسباب كثيرة جعلت من هذه البقعة الصغيرة مساحة، الكبيرة تاريخا وحاضرا، رمزا للمقاومة الفلسطينية ضد الاحتلال الإسرائيلي من بين مدن الضفة؛ تلك البقعة التي تقع في أقصى شمالي الضفة، بمساحة تصل إلى 583 كم2. خلال العصر الحديث، كان لجنين تاريخ مشرف طويل، هو الذي بوأها احتلال هذه المكانة الرمزية؛ فمنذ حملات نابليون في أواخر القرن الثامن عشر وبدايات القرن التاسع عشر، كانت جنين درّة تاج المدن الفلسطينية في مقاومة الاحتلال الفرنسي، وسبّبت صداعا كبيرا للفرنسيين، حتى كاد نابليون أن يدمّر المدينة تماما، وهي التي وقفت كذلك مع سائر مدن فلسطين ضد الاحتلال البريطاني أيام ثورة 1936، وبذل البريطانيون جهدا بالغا للقضاء على المقاومة الفلسطينية في المدينة في ذلك الوقت، حينما كان يقودها الشيخ عز الدين القسام، حتى سقوطه شهيدا عام 1939 في بلدية يعبد التابعة لمدينة جنين. لم ينته تاريخ المدينة هنا، فمنذ اللحظات الأولى للإعلان عن قيام دولة الاحتلال، كانت جنين في مقدمة المدن الفلسطينية التي تقاوم المحتل، وعانى الاحتلال كثيرا في عدة معارك مريرة خاضها في جنين عام 1948، لم يستطع بسببها، ونتيجة شراسة مقاومة أهلها، أن يستمر في احتلال المدينة. وخلال الانتفاضة الأولى 1987، والثانية 2000، وخلال معركة جنين في 2002، أثبتت جنين جدارتها في مقاومة الاحتلال، حتى أصبحت تعرف بين أبنائها باسم «جنين غراد»، تشبيها لها بمدينة ستالينغراد الروسية التي صمدت ستة أشهر في مواجهة الجيش الألماني في أثناء الحرب العالمية الثانية، حتى تمكّنت لاحقا من تحقيق الانتصار الذي كان له تأثيره الكبير على مجريات هذه الحرب. وما زالت جنين شوكة في حلق إسرائيل؛ فمنها ينطلق أكثر المقاومين لتنفيذ عملياتهم ضد الاحتلال في الداخل الفلسطيني، يساعدها في ذلك عدم وجود تجمّعات استيطانية إسرائيلية أو قواعد لجيش الاحتلال داخلها، ما يقلل من السيطرة الاستخباراتية الإسرائيلية على المدينة، يضاف إلى ذلك أنها أكثر مدن الضفة التي تشهد تعاونا كبيرا للغاية بين فصائل المقاومة الفلسطينية على اختلاف توجهاتها.

ارتبطت الرمزية الثانية بجريمة إسرائيل، حين صوّب أحد قناصة جيش الاحتلال بندقيته إلى رأس شيرين أبو عاقلة وهي تغطي محاولات جيش الاحتلال اقتحام مدينة جنين. ولم تكتف إسرائيل بذلك، بل هاجمت لاحقا جنازة أبو عاقلة، وأسقطت، أو كادت تسقط، التابوت الذي احتضن جثمانها. وحاول الاحتلال عبثا التنصّل من هذه الجريمة التي أضرت به في اتجاهين؛ أولهما أنها أضافت إلى خسائره الإعلامية خسارة جديدة على المستوى العالمي؛ حتى أصبح مشاهير كثيرون في العالم يتداولون جريمتي إسرائيل بحق شيرين؛ فقد كتبت الممثلة الأميركية سوزان ساراندون، على صفحتها، أن قناصا إسرائيليا قتل شيرين وهي تلبس زي الصحافة وتضع خوذة على رأسها. وتساءلت: حتى متى سنظل صامتين و«حلفاؤنا» يقتلون الصحافيين. وبعد الهجوم على الجنازة كتبت مرة أخرى تنتقد العنف الإسرائيلي بقولها «من سيرفض عنف القوات الإسرائيلية ضد الجنازة سوف يصوّر كارها لإسرائيل، ومعاديا للسامية». وفي السياق نفسه، كتب لاعب الكرة الإنجليزي السابق غاري لينيكر يصف ما فعلته إسرائيل بأنه مريع. وهذه الشهادات ما هي إلا نماذج لما تتعرّض له إسرائيل في الأعوام الأخيرة من خسارة في الرأي العام العالمي، وهي تعكس كيف كان قتل شيرين أبو عاقلة فضيحةً بالنسبة لإسرائيل، من حيث أرادت إخفاء جرائمها بقتل الحقيقة. ولعل هذه الخسارة هي التي دفعت هيئة تحرير صحيفة هآرتس، بعد يوم من هذه الجريمة، إلى حث الحكومة الإسرائيلية للضغط على الفلسطينيين من أجل قبول تشكيل لجنة تحقيق مشتركة. ولم يكن ينقص الصحيفة حينها إلا أن تعلن أن هدف هذه الدعوة طمس الحقيقة.

> سيظل مشهد قتل شيرين أبو عاقلة والاعتداء الهمجي على جنازتها محفورا في مسار الصراع العربي الإسرائيلي

لم تكن هذه خسارة إسرائيل الوحيدة؛ فبعد عدة أيام من الاعتداء على جنازة شيرين أبو عاقلة، حتى أوشك التابوت الذي احتضن جثمانها على السقوط، ها هي الحكومة الإسرائيلية على وشك السقوط الحقيقي، بعد أن أعلنت غيداء ريناوي زعبي عن استقالتها نتيجة الاعتداء الهمجي للشرطة الإسرائيلية على الجنازة، ليصبح سقوط الحكومة حتميا إن لم تنجح محاولات نيتسان هورفيتس، رئيس حركة ميرتس، وقادة الائتلاف، بينيت ولبيد، في ثنيها عن موقفها، أو إقناعها على الأقل بعدم التصويت لصالح سحب الثقة، حتى لا يعود اليمين الإسرائيلي المعارض بقيادة نتنياهو إلى السلطة.

سيظل مشهد قتل شيرين أبو عاقلة والاعتداء الهمجي على جنازتها محفورا في مسار الصراع العربي الإسرائيلي، وعلى الرغم من رمزية تلك اللحظة، وما تعكسه من حالة ضعف عربي وسقوط على المستوى الرسمي، إلا أنه في المقابل يمكن القول إن شيرين كانت مصدر إفساد لراحة الاحتلال في حياتها، ومصدر زعزعة لاستقراره بعد مماتها، وكأننا أمام مشهد جديد من مشاهد مقاومة الاحتلال تنتصر فيه الرمزية الفلسطينية، فلن تسقط جنين، ولن تتوقف شيرين عن مطاردته في حياتها ومماتها.

(كاتب مصري)

من تظاهرة في نيويورك (تايفون كوزكون/الأناضول)



## في وداع فيصل حوراني

عيسى الشعيبي

هذه واحدة من المرّات المتباعدة التي أرثي فيها عزيزاً أو صديقاً ترجّل عن صهوة الحياة من دون استئذان، ليس لقلة أسى أو ضئيل التياع، وإنما لحسٍّ عميق بفداحة الخسارة أو ربما لانعقاد اللسان، فما بالك إذا كان الراحل صديقاً حميماً، مثل فيصل حوراني، الرجل الذي لم تنقطع صلتي به منذ ما يزيد عن أربعين سنة، عندما التقيته في مكتب منظمة التحرير في دمشق أول مرة، وأخذني إلى تناول الغداء في منزله، في تعبير أوليّ عن ألفةٍ تكوّنت بين اثنين تعرّفا إلى بعضهما للتوّ، لتمتدّ بعد ذلك أواصر فكرية ومودّة شخصية دافئة، ظلت تنمو وتتوسع، رغم تعدّد ديار المنفى لكلينا، وطول البعاد بيننا في أغلب الأحيان. تهرّبت أول الأمر مما يقتضيه واجب تقديم التعزية للنفس قبل تزجيتها للغير، وبرّرت ذلك بضرورة الإضاءة على استشهاد شيرين أبو عاقلة، المتزامن مع رحيل فيصل، إلا أن الشعور العميق بوطأة الفقد أمسك بي من جديد، وأملى عليّ التوقف عن التفلّت من قول شيء، ولو قليل، عن كثير فيصل الوفير، متسائلاً، قبل الانصياع لنداء عالمي الداخلي، ما الذي تتّسع له مساحة هذه الزاوية، وفي الجعبة ما يفيض عن صفحة كاملة على أقل تقدير؟ وكيف لي أن أتجنب الحديث عن نفسي، كما يفعل بعضهم في مناسبةٍ كهذه، فيما الموقف في مقامه الأول استعادة وبوح لواعج؟

كنت على درايةٍ بما كان يعانيه فيصل من أوجاع تكاثرت على بدنه في السنوات الأخيرة، إلا أن خبر وفاته كان ثقيلاً على النفس، لا سيما أن النعي وصل إليّ بعد منتصف ذلك اليوم الطافح بالغياب، الأمر الذي ضاعف من ألم الفقد، وأثار لدي رغبة جامحة في التحدث إلى أي أحد من أصدقائنا المشتركين، وقلتُ في نفسي من ذا الذي سأعثر عليه في هذا الوقت المتأخر سوى صديقنا رئيس مركز الأبحاث الفلسطيني الأسبق في زمن بيروت صبري جريس. هاتفتُ صبري، المقيم في أعالي الجليل، المنهمك في كتابة مذكراته باللغة العبرية أغلب الوقت، ودار بيننا حديثٌ طويلٌ دام ساعة وأزيد، استذكرنا فيها فيصل، وعرّجنا على مسائل أخرى، ثم طلبت منه رقم هاتف ابنة الراحل لمى، المقيمة في رام الله، فقال إنه سيأخذه من ابنته فدى، وهي بالمناسبة روائية صاعدةٌ بجدارة، وذلك عندما سيقابلها غداً في القدس، يوم تشييع جنازة شيرين أبو عاقلة في كنيسة الروم الكاثوليك. وبالفعل حصلتُ على غايتي من وسط الزحام، وهاتفت لمى التي بادرتني قائلة إنه كان عليها هي أن تتصل بي معزّية، لمعرفتها المسبقة بمدى معزّة أبيها، ورفعة منزلته لدي.

في أواخر السبعينيات، عشتُ نحو عامين في دمشق، توثّقت فيهما علاقتي بفيصل، الذي كانت له صداقاتٌ واسعةٌ مع مختلف الأوساط السياسية والفنية والصحافية في العاصمة السورية، الأمر الذي أتاح لي التعرّف على عدد كبير من الكتاب والمثقفين اللامعين فيها، وحين قفلتُ عائداً إلى بيروت في عزّ الحرب الأهلية، كان بيتي المتواضع منزلاً لفيصل كلما حطّ ركابه في العاصمة اللبنانية، وكان بيته في المقابل نُزلي الوحيد كلما يمّمت وجهي شرقاً وقضيت ليلتي في الشام، وعندما استقريتُ في عمّان أوائل الثمانينيات، كان الصديق العتيق يهاتفني من المطار، لدى وصوله من فيينا، ومكوثه بعض الوقت بيننا، في طريقه إلى رام الله، كما كان يفعل الشيء ذاته، فور عبوره الجسر، عائداً إلى منفاه الأوروبي؟

إذا وضعنا الحديث عن فيصل المفكر الكاتب الروائي المؤرخ جانباً، وقد غطّى هذا الواجب أصدقاء ونقّاد مُجلون، تبقى إشكالية أن المقام لا يتسع لاسترجاع فيضٍ هائلٍ من الذكريات الشخصية مع فيصل الإنسان الصادق الصدوق الوفي، صاحب الشخصية الآسرة واللسان الذرب والحضور القوي أينما حلّ، الرجل المبدئي ذي الضمير اليقظ على طول الخط المستقيم، السياسي غير المجامل ولا المساوم إزاء كل ما كان يعتقد أنه الصواب، التقدمي بكل ما في هذه المفردة من سلوكٍ اجتماعي وتصرّف سياسي وتفكير نقدي عميق، الهازئ بالتابوهات والمسلّمات والخطوط الحمراء، الفتى العصامي اليتيم الفقير الذي صنع نفسَه من العدم، الشاب الساخر المعتز بفصله من حزب البعث لأنه صافح محمود درويش.

## الرئيس مسؤول وليس منحة إلهية

محمد طلبة رضوان

ليست الهزيمة وحدها جواباً عن سؤال السياسة، إنّما تفاعلات الواقع، في مصر والإقليم والعالم، وما تغيّر أو ذهب ولن يعود بسهولة، من وعي الناس بالثورة وصلاحيتها للحكم والتغيير. يحتاج قطاع كبير من المعارضين المصريين إلى «مذاكرة» هذه البديهية، وما ترتّب عليها، ولا يعني ذلك أنّ ثورة يناير انتهت، بل إنّ هذا الجيل من ثوار يناير لم يعد، في حدود إمكاناته وظرفه، هو صاحب «المستقبل». ثمّة جيل آخر، أصغر، تلقّف ذلك كله منا، وعنا، وسيأتي وقته، الآن نحن أمام اختبار السياسة، الأصعب، وإمكانية تحريك الوضع الحالي، الأكثر بؤساً في تجربتنا، وتجاوز أزمة الدولة المؤجّلة إلى صيغةٍ أقرب إلى الدولة، وإن لم تكن كما نريدها ونتمنّاها. تابعت حوار المعارض المصري ورئيس حزب الكرامة أحمد الطنطاوي، على «سي أن أن»، وكان أبرز ما قاله من «كلام مرتب» استعداده للحوار مع السلطة، رغم ما سبق، وهو ثقيل، وتبنّيه، مع الجبهة المدنية الديمقراطية، مطلب أن يكون الحوار برعاية مؤسسة الرئاسة، بوصفها الجهة الوحيدة في مصر (مع الأسف) التي تمتلك قدرة وفاعلية على إنجاز ما تلتزم به، إنْ أرادت طبعاً.

يشترط بعض أطراف المعارضة المصرية شروطاً معقولة ومقبولة لإجراء حوار وطني حقيقي، يتجاوز الشعارات إلى السياسات، واللافتات إلى الممارسات، ويبالغ بعضُهم في تقدير قوته، أو مدى حاجة الدولة إليه في الظرف الراهن، ويتصرّف كما لو أنه هو الشخص نفسه في 2011، القوة نفسها، والفعالية نفسها، والتأثير نفسه، وهو ما أعجبني أيضاً في حوار الطنطاوي، المشار إليه، حيث قرر بوضوح أنه لا معلومة بخصوص مدى حاجة الدولة إلى هذا الحوار. وليس جديداً على أحد أنه لا أحد يعلم شيئاً في مصر سوى السلطة، ولا معلومات عن أي شيء سوى ما تسمح به السلطة. وعليه، فإنّ الحوار المرتقب فرصة محتملة، ورفض استغلالها، أيّاً كانت، أو التعالي عليها، رفاهية لا تملكها المعارضة المصرية، كما أن تقديم شروطٍ استباقيةٍ لخوض الحوار، على طريقة إما كذا وكذا أو لا حوار، ليس مفهوماً، وليس متاحاً، والحال هو الحال. هل يعني ذلك أنّه حوار إذعان، متحدّث و«سمّيعة»، ليس لهم أو عليهم سوى التهليل والتكبير، وأنّ الحوار منحةٌ من السيد الرئيس، وليس حاجة ملحّة لدى الطرفين؟ الإجابة، في تقديري، لا... تحتاج الدولة إلى الحوار مثل ما يحتاجه معارضوها المهدّدون بالسجون والمعتقلات، وغيرهم. ويحتاج الرئيس، تحديداً، إلى هذا الحوار، ربما أكثر من معارضيه. وأشير هنا، على سبيل المثال، إلى ما حدث في الأيام الأخيرة من استجابة قطاع كبير من المصريين (ومنهم مؤيدون للنظام الحالي)، لكلمة جمال مبارك أخيراً. أغلب التعليقات أشارت إلى قدرة مبارك الصغير على أن يبدو ملء كرسيه المتخيّل، والذي لا يجد الآن من يملأه. لم ينس المصريون مبارك وعائلته، وما عانوه على أيديهم، لكنّها أزمة السلطة الحالية تنعكس على تعليقات المصريين على أي حوار لأيّ منافس محتمل، سلطة تحتاج إلى إعادة تبرير نفسها... وجودها... استمرارها، ورئيس يحتاج إلى خطاب مختلف، حتى مع مؤيديه، فلم يعد ممكناً أن تكون الإجابة عن سؤال الاقتصاد «أصبروا كما صبر الصحابة (والتابعون!) مع النبي»، فلا الرئيس نبي، ولا النبي كان رئيساً. ولو أردنا استدعاء لغة السياسة، على خطورتها، لقلنا إنّه، صلى الله عليه وسلم، كان ثائراً، وداعياً إلى التغيير، وليس العكس، (أو السيسي)...

لم يعد ممكناً أن تكون الإجابة عن سؤال المعارضة «ما تحطّش رجل على رجل وتتكلم»... سؤال الإعلام اسمعوا «كلامي أنا بس». سؤال الماء وسد النهضة «بطّلوا هري وعيشوا حياتكم».. سؤال التراب الوطني وبيع جزيرتي تيران وصنافير «مش عايز أسمع كلام في الموضوع ده تاني».... سؤال المعتقلين «ماعندناش معتقلين»... سؤال الفشل في أغلب الملفات «ثورة يناير هي السبب». يحتاج الرئيس أن يتصرف كمسؤول، إذا أراد أن يستمر كمسؤول. من هنا نبدأ، إذا أردنا، حقاً، أن نستمر.

# اليمنيون في مواجهة الجوع

**بشرى المقطري**

تتضاعف أمام المواطنين التحدّيات اليومية للأزمات الاقتصادية التي تتجاوز أبعادها الشروط المحلية للحرب إلى تداعيات عالمية مستمرّة. وقد تتضاءل خيارات الحياة أمامهم، فعلى مستويات عديدة، أوجدت الحرب الروسية - الأوكرانية تداعيات اقتصادية تتفاعل مع تطورات الحرب الجارية في أوروبا، وتوسّع دائرة العقوبات المتبادلة بين المعسكرين، فمن جهة، أدّى استمرار تذبذب أسعار الطاقة عالمياً إلى ارتفاع اسعارها، بما في ذلك تأثر إنتاجية المصانع والشركات المختلفة، كما أن الصراع الدولي المتبادل قلّص من حجم التبادل التجاري بين الدول، ومن ثم حدّ من تدفق المواد الغذائية، وبالتالي ارتفاع أسعارها، فضلاً عن التضخم الاقتصادي الذي بات تحدّيا يواجه معظم الدول. ومن جهة أخرى، فرضت تداعيات الحرب الروسية الأوكرانية أزمة غذاء، فحرب الدولتين، المصدّرتين للقمح، قلصت إمداداته في الأسواق، كما أن السياسات الوقائية التي اتبعتها الدول الأخرى المصدّرة للقمح فاقمت الأزمة على الصعيد العالمي، بحيث أدّت إلى ارتفاع أسعاره. وبالتالي، أصبح نقص القمح مشكلة تهدّد حياة الملايين. وفي أزمة اقتصادية مركّبة تتمدّد تبعاتها يومياً، تتكشّف مستويات أكثر خطورةً في بلدان الحروب، كاليمن، حيث تفرض كلفة الحرب آثارها على حياة اليمنيين، فيما تفاقم سلطات الحرب من معاناتهم. ولذلك، نقص إمدادات القمح في اليمن يعني دفع الأزمة الإنسانية الخانقة إلى حدود المجاعة.

تتبدّى أسباب المجاعة في اليمن وشروطها ليس فقط في نقص الموارد، وإنما في كيفية إدارة سلطات الحرب هذه الموارد، والسياسات التراكمية التي اعتمدتها لإفقار اليمنيين، ففي مقابل حصر موارد الدول لتمويل نفقات أجهزتها السياسية والعسكرية، زجّت سلطات الحرب الاقتصاد اليمني في صراعها اليائس على السلطة، بحث فَرض انقسام المؤسسات الاقتصادية على حياة اليمنيين، كآلية موجّهة تعمل على امتصاص مواردهم، إلى جانب التربّح من حالة الحرب، من السلطات وشبكة المتربّحين، بحيث امتدّت الأزمة لجميع مناحي الحياة، من تضاعف أسعار المواد الغذائية إلى رفع أسعار المشتقات النفطية والتلاعب بأسعار العملة المحلية مقابل الدولار، بحيث جرت تنمية أدوات متعدّدة لإفقار اليمنيين وتحويلهم إلى جيوش مفقرة، تعتمد على المساعدات الإغاثية والمعونات الإنسانية. ومع أن اليمنيين ظلوا يديرون حياتهم وفق الحد الأدنى طوال سنوات الحرب، فإن تداعيات الحرب الروسية الأوكرانية قلصت الهامش الإنساني الضيق الذي يتحرّكون فيه، والتي امتدّت إلى القمح، الغذاء الرئيسي لمعظم اليمنيين. ومع هذه الأزمة التي توطّنت في اليمن عقودا طويلة نتيجة سياسة السلطات المتعاقبة، فاقم المشكلة غياب سلطة مركزية تتبنّى خطة مستدامة لرفع مستوى زراعة القمح محلياً وتغطية حاجة اليمنيين، مقابل اعتماد سلطات الحرب على مورّدين محليين موالين لها يحتكرون استيراده، إلا أن حضور الهند لتصدير القمح لسد حاجة مواطنيها أخيرا صعّد من تحدّيات تفاقم أزمة الغذاء في اليمن، ونقص إمدادات القمح، فبحسب أحد تقارير منظمة أوكسفام البريطانية، ارتفع سعر الخبز في اليمن، منذ بداية الأزمة الأوكرانية، بنسبة 35%. يضاف إلى ذلك أن تقليص برامج الغذاء العالمي، والذي كان، على الرغم من اختلالات أدائه يموّل، إلى حد ما، النازحين بالسلال الغذائية، منها القمح، يضاعف من تدهور الوضع الإنساني في اليمن، خصوصا مع توجيه الدول الغنية أولوياتها إلى تفادي الأزمة الاقتصادية المترتبة على الحرب الروسية - الأوكرانية، وهو ما يجعل الحالة الإنسانية في اليمن مرشّحةً أكثر للتدهور في قادم الأيام، بحيث بدت مؤشّراتها في تفشّي سوء التغذية في مناطق يمنية عديدة، من منطقة حيس في مدينة الحديدة إلى مدينة حجة وحتى أرياف صنعاء.

تقتضي إدارة الأزمات الاقتصادية قيام السلطة بمهامها الوظيفية من خلال تسخير كل موارد الدولة للحدّ من تبعاتها على حياة المواطنين، وقبلها تبنّي سياسات اقتصادية لمعالجة الأزمة، بيد أن سلطات الحرب في اليمن نموذج استثنائي في تكريس أدوات القهر، إذ إن فلسفتها المتجذّرة، بوصفها قوى طفيلية تقوم على صنع الأزمات والاستفادة منها، تتشابه في ذلك، سلطة متغلبة قوّضت الدولة وكرّستها سلطة منحتها دول الإقليم المشروعية لتوحيد وكلائها. وإذ كان تسويق المجلس الرئاسي، بوصفه سلطة صُنعت في الرياض، جاء في سياق تمكينها لإدارة المناطق التابعة لها، ومن ثم وقف تدهور الأوضاع الاقتصادية، فإن أداء الحكومة المعترف بها، سلطة تنفيذية، ظلّ قاصراً، بحيث عجزت عن تطبيع الحد الأدنى من مظاهر الحياة اليومية، فعلى الرغم من انخفاض سعر الدولار قياسا بالعام الماضي، فإن أسعار السلع الأساسية استمرّت في الارتفاع في المناطق التابعة لها، حيث تشهد المناطق المحرّرة موجة غلاء نتيجة غياب آلية للحكومة لمراقبة الأسعار. وفي الجانب الخدمي، عجزت الحكومة عن حل مشكلة استمرار انقطاع الكهرباء، كما أن عدم امتلاك الحكومة القرار الاقتصادي في إدارة الموارد، بما في ذلك فشلها في استئناف تصدير النفط، مقابل اتّكالها على دعم حلفائها لتغطية نفقاتها في المقام الأول. ومع إعلان السعودية والإمارات في الشهر الماضي (إبريل/ نيسان) التزامهما بدعم الاقتصاد اليمني، فإن عدم إيفائهما بتعهداتهما يمثل انكشافا آخر للحكومة، حيث اكتفت السعودية بتمديد الوديعة السابقة، وتحويل الجزء المتبقي إلى البنك المركزي في مدينة عدن. وفيما فرضت تداعيات الحرب الروسية الأوكرانية على الحكومات مواجهة الأزمة، ظلت الحكومة المعترف بها تديرها من خلال تسوّل الداعمين من دون تبنّي أي سياسة لتفادي الأزمة أو على الأقل التخفيف من تداعياتها، وذلك بتمكين المزارعين من زراعة القمح، مقابل تولي التجار استيراده، ومن ثم القيام بمهام الدولة. واقتصرت سياسة الحكومة على مناشدة الهند باستثناء اليمن من حظر استيراد القمح، إلا أن أزمة القمح المتنامية في العالم، بما في ذلك ارتفاع أسعاره، فاقمت تأثيراتها في اليمن، بحيث طالبت مجموعة هائل سعيد أنعم الصناعية، وهي أكبر مستوردي القمح في اليمن، بإيجاد حلولٍ عاجلةٍ لتفادي أزمة إنسانية في اليمن، مع احتمال نفاذ احتياطي القمح في غضون أشهر.

> تتبدّى أسباب المجاعة في اليمن وشروطها ليس فقط في نقص الموارد، وإنما في كيفية إدارة سلطات الحرب هذه الموارد
>
> أزمة اقتصادية عالمية، إضافة إلى استمرار الحرب، هي نعمة لسلطة جماعة، حتى لو دفعت ملايين اليمنيين إلى المجاعة

سلطة الغلبة المليشاوية تتبنّى سياسة تخليق أزمات اقتصادية دورية تمدّها بموارد إضافية، وإخضاع المجتمعات بالقوة لوسائلها القهرية. ولذلك، أي أزمات اقتصادية عالمية هي وسيلة إضافية لتنمية موارد هذه السلطة، مقابل تحميل خصومها مسؤولية هذه الأزمات، ولذلك ظلت شمّاعة العدو والحصار على اليمن هي السياسة الاقتصادية لجماعة الحوثي لإدارة أزمات تنتجها، وتحميل المواطنين كلفتها. وإذا كان دخول أكثر من 11 سفينة محملة بالوقود إلى ميناء الحديدة ضمن إجراءات الهدنة الإنسانية هدفا لتخفيف أعباء أزمة المشتقات النفطية على المواطنين في مناطق الجماعة، فإنها لم تخفّض سعر البترول، بما في ذلك الغاز المنزلي، فضلا عن ارتفاع أسعار الكهرباء في المحطّات التجارية التي هي ضمن اقتصاد الحرب التي تديرها الجماعة. ومن جهة أخرى، وعلى الرغم من الاستقرار النسبي للعملة المحلية مقابل الدولار، فإن قيمتها الشرائية أدنى، مقابل استمرار ارتفاع أسعار السلع الأساسية، وذلك نتيجة فرض الجماعة ضرائب متعدّدة إلى جانب الجبايات، فوفقا لأحد التقارير، بلغت نسبة ارتفاع أسعار المواد الغذائية في الثلاثة أعوام الأخيرة إلى 556% في صنعاء فقط. وفي وقتٍ تتكشف تداعيات الحرب الروسية الأوكرانية عن أزمة القمح في اليمن، فإن جماعة الحوثي كالعادة، وظفت ذلك لصالحها هي وطبقة المنتفعين، وذلك برفع أسعار الدقيق، إلى جانب استغلال أزمة الدجاج، فمع ارتفاع أسعاره عالميا، بما في ذلك العلف، فإن فرض الجماعة ضرائب جديدة على مزارع الدواجن، وصلت إلى مليون ريال، بما في ذلك ضغطها على المزارع، وذلك بإجبارها على إمداد مقاتليها في جبهات الحرب بالدجاج المحلي، ما فاقم حدود الأزمة، مقابل توجّه الجماعة، أخيرا، إلى استيراد الدجاج المثلّج لسد حاجة المواطنين، وذلك لتنمية مكاسبها. ومن ثمّ، فإن أزمة اقتصادية عالمية، إضافة إلى استمرار الحرب، هي نعمة لسلطة جماعة الحوثيين، حتى لو دفعت ملايين اليمنيين إلى المجاعة.

(كاتبة يمنية)

# مجزرة بوفالو والخوف من الملوّنين

**وائل السواح**

نهض الفتى بايتون جيندرون (18 سنة)، من فراشه، فغسل وجهه وتناول إفطارا، وتدرّع بدرع واقٍ من الرصاص، واعتمر خوذةً ثبّت في مقدّمتها كاميرا لبثٍّ مباشر، وتقلّد بندقية حربية، ثم سافر لمسافة تزيد عن 320 كيلومترا، ليدخل إلى متجر كبير، ويطلق النار على أشخاصٍ لا يعرفهم، في مدينة غير مدينته وبين نّاس غير ناسه، فيقتل منهم عشرة أشخاص، جلّهم من السود، ويجرح ثلاثة آخرين. لم يكن يعرف أيا من ضحاياه. لم يكن بينهم عداوة، ولا مصالح، ولا خلافات مالية. جلّ ما في الأمر أنهم كانوا من لونٍ آخر: كانوا سودا.

لم تأتِ المجزرة بعد مشاجرة أو إثر خلاف، بل جاء الفتى مجهّزا بكل المعدّات اللازمة ومستعدّا للقتل، فقد أمضى سنوات ثلاثا وهو يتخيّل كيف سيقوم بمجزرته، ويقضي على أعداء العرق الأبيض. وشوهد قبل أشهر في المدينة نفسها، بوفالو، في ولاية نيويورك، وفي المتجر عينه، متجر توبس، الذي يرتاده السود عموما. وفي اليوم السابق للمجزرة، زار المتجر، فيما يبدو أنه المعاينة الأخيرة قبل التنفيذ. ولو أنه لم يعتقل في مكان الجريمة ووقتها، لكان قد نفّذ مجزرتين أخريين على الأقل، كما أخبر المحقّقين. ما الذي يدفع شخصا ما ليحملَ كلّ هذا الحقد وتلك الكراهية لأشخاصٍ لا يعرفهم، وليس بينهم عداوة شخصيةٌ؟.. يشعر بعض الأميركيين البيض بالقلق من المهاجرين غير البيض الذين يزدادون عددا بسبب الهجرة ومعدّل الولادة. وفقًا لاستطلاع وطني أجراه مركز أسوشييتد برس – نورك لبحوث الشؤون العامة، أُجري في ديسمبر/ كانون الأول الماضي، يعتقد ما يقرب من ثلث الأميركيين أن هناك محاولة متعمّدة جارية لاستبدال الأشخاص البيض المولودين في الولايات المتحدة بالمهاجرين الملوّنين. ووجد الاستطلاع أن 29% من الأميركيين البالغين يخشون من أن يخسر الأميركيون المولودون في الولايات المتحدة نفوذهم الاقتصادي والسياسي والثقافي، مع زيادة عدد المهاجرين.

تزيد هذه الأرقام بين الجمهوريين المحافظين عن المعتدلين والليبراليين بطبيعة الحال. والحقّ أن ثلثي الجمهوريين يعتقدون أن نمو عدد المهاجرين إلى الولايات المتحدة «يعني أن أميركا في خطر فقدان ثقافتها وهويتها». من هذا القلق، طوّر بعض القوميين البيض نظرية جديدة تستند إلى

إحياء لذكرى الضحايا (سبنسر بلات/Getty)

المؤامرة، هي «نظرية الاستبدال»، أو التي تشير إلى فكرة أن ثقافة العرق الأبيض وسيادته السياسية يجري استبدالهما عمدا، من خلال إغراق البلد بالمهاجرين والأقليات. وربطت الجماعات المناهضة للهجرة والمتفوقون البيض نظرية المؤامرة بحجّتهم التي لا أساس لها من الصحة، أن السياسات المؤيدة للهجرة صمّمتها النخب لتدمير العرق الأبيض أو تقويضه. وتقوم هذه الحجّة على الافتراض الخاطئ أن المهاجرين غير البيض سيصوّتون جميعا بطريقة معينة، وسيقلّلون بشكل جماعي من تأثير العرق الأبيض.

اكتسب هذا المفهوم زخما كبيرا عندما صاغ المفكر الفرنسي القومي رينو كامو عبارة «الاستبدال العظيم» في كتاب صدر عام 2011، مدّعيًا أن المسلمين في فرنسا يدمّرون الحضارة والثقافة الفرنسية بسبب ارتفاع معدلات المواليد لديهم. وتدور فكرة الكتاب حول نظرية مؤامرة، تفيد بأن الهوية الغربية والبيض تحت الحصار؛ بسبب موجات الهجرة الهائلة من البلدان غير الأوروبية وغير البيضاء، وأن الهجرة الجماعية مع النمو السكاني للمهاجرين ستؤدّي إلى تغير ديموغرافي في الغرب، يُستبدل بموجبه مهاجرون من الشرق الأوسط وشمال أفريقيا بالأفراد الأوروبيين، وغيرها من البلاد غير الأوروبية.

ويركّز كامو أكثر على المسلمين، لمغايرتهم ليس في العرق فقط، ولكن في الدين أيضا. وهو يرى المسلمين «محاربين غزاة هدفهم الوحيد هو التدمير واستبدال الإسلام بالشعب الفرنسي وحضارته». وعلى الرغم من الحكم على كامو بغرامة بلغت أربعة آلاف يورو، فإن فكرته لم تتوقّف، ففي عام 2014، الذي صدر فيه الحكم ضد كامو ذُكر مصطلح «الاستبدال العظيم» في مواقع التواصل الاجتماعي 120 ألف مرة، بحسب مجلة تايم الأميركية، التي أفادت بأن انتشار المصطلح تضاعف مرّات كثيرة في السنوات التي تلت. ولكنّ للفكرة جذورا أسبق على ذلك في أوروبا. ففي مطلع القرن العشرين، كتب رائد القومية الفرنسية موريس باريز أن الشعب اليهودي سيستولي على وطن«نا» و«يدمره». وانتشرت هذه النظرية كالنار في الهشيم في ألمانيا النازية وإيطاليا الفاشية. ولا يزال اليهود، ومن ثمّ المسلمون، مصدر خوفٍ متعاظم لدى الأوروبي العادي عموما. وفي الولايات المتحدة، تأخر ذلك كثيرا. وبينما كانت العنصرية قاتلةً أحيانا تجاه الأميركيين من أصل أفريقي، فقد كان الأميركيون أكثر تسامحا عموما مع المهاجرين من قوميات أخرى وديانات أخرى. على أن فوز الرئيس باراك أوباما في عام 2009، أول رئيس أميركي أسود، قد هزّ بعنف أركان القومية البيضاء ودعاة تفوّق العرق الأبيض. فلأول مرّة يأتي ابن مهاجر فقير من كينيا، ليس ليصبح نائبا في الكونغرس، أو محافظا لبلدة صغيرة، ولكن ليصبح رئيسا للولايات المتحدة. كانت صدمة وصول رجلٍ من أصل أفريقي إلى البيت الأبيض موجعة للجميع: للعنصريين والفاشيين الجدد والمحافظين الذين يناضلون من أجل إبقاء الأمور على حالها، وقد جال في خاطر الجميع أنه إن جاء اليوم رجل أسود إلى الحكم، فقد يأتي غدا رجل مفرط في الليبرالية أو اشتراكي أو حتى امرأة!

ومنذ اليوم الأول لوصول أوباما إلى البيت الأبيض، رصّ المحافظون صفوفهم لإفشال سياسته، وضعوا كلّ عصا ممكنة وغير ممكنة في عجلة السياسة والاقتصاد والرعاية الاجتماعية. وجاء المرشّح الرئاسي دونالد ترامب ليؤكّد أن باراك أوباما لم يولد في أميركا. وبالتالي، لم يكن رئيسا شرعيا، وهو ما ساعد في تحفيز أكثر الأجزاء تطرّفاً في الحزب الجمهوري وقاعدته. واكتسبت كذبة ترامب زخما كافيا للسماح لترامب بالفوز بترشيح الحزب الجمهوري، ومن ثمّ بالرئاسة بنجاح. وفي عهد ترامب، وجد القوميون المتعصّبون والمتفوقون البيض في الرئيس سياسيا حليفا، بل وملهما، في سعيهم إلى إعادة أميركا إلى ما كانت عليه قبل عام 1965 من إصلاحاتٍ عرقية ومجتمعية.

ونمت في عهد الرجل شبه الأمي الأيديولوجية التي تركّز على اعتقاد لا أساس له أن المهاجرين سيهمّشون السكان البيض من خلال السياسات التي وضعتها «النخب» الليبرالية. وألهمت هذه الأيديولوجيا هجمات عنيفة عديدة في السنوات الأخيرة، في الولايات المتّحدة. وفي حين أن السود هم الأكثر استهدافا بمثل هذا العنف، فقد انتشرت في عهد ترامب الاعتداءات على مجتمعات اليهود والمسلمين والمثليين والمتحوّلين جنسيا واللاتينيين والآسيويين. وعلى مدى السنوات السبع الفائتة، وقعت أحداث كثيرة كشفت عن عمق قابلية العنصريين البيض لاستخدام العنف، بدءًا من إطلاق النار على كنيسة إيمانويل إيه إم إي التي خلفت تسعة قتلى من أبناء الرعية السود في تشارلستون، بولاية ساوث كارولينا، في 17 يونيو/ حزيران 2015، مرورا بجرائم الكراهية ضدّ مجموعات أخرى، بما في ذلك المذبحة في 2016 ضدّ مجتمع الميم في أورلاندو بولاية فلوريدا والتي خلفت 49 قتيلاً و53 جريحا، والمذبحة المعادية للسامية في كنيس شجرة الحياة في بيتسبرغ، بنسلفانيا (2018)، والتي تركت وراءها 11 قتيلا وستة جرحى، وإطلاق النار الجماعي في إل باسو في ولاية تكساس (2019)، والذي أسفر عن مقتل 23 شخصا، واستهدف صراحة مجتمع اللاتينكس في المدينة، ثمّ إطلاق النار في منتجع صحي في أتلانتا (2021)، أسفر عن مقتل ثمانية أشخاص، بينهم ستة أشخاص من أصل آسيوي. ولعلّ أكثر المشاهد تعبيرا كان مشهد مئات النازيين الجدد في مدينة شارلوتسفيل (2017)، حين عبروا الشوارع وهم يحملون المشاعل النازية، برؤوس محلوقة وزنود مغطاة بالأوشام، ويهتفون «لن يحل اليهود محلّنا»!

لم تكن حادثة بوفالو، إذن، منعزلة، بل الخوف السائد بين الأميركيين حاليا أن ذلك العنف سيكون هو النمط السائد في العلاقة بين الأميركيين. ولن يكون تغيير هذا التوجّه المتنامي أو عكسه قريب المنال، لأسباب عدّة، أوّلها القوة العظيمة للوبي السلاح الأميركي، وثانيها أن الدستور يحمي حقّ الناس العاديين باقتناء السلاح، حتى الحربيّ منه. وثالثها هيمنة المحافظين على القضاء، بما فيه المحكمة العليا، ورابعها فرسان الإعلام العنصري في وسائل اليمين المتطرّف من فوكس نيوز ونيوز ماكس وغيرهما. وفي مقدّمة الجميع، يقف بالطبع المذيع الأبيض الوسيم تاكر كارلسون، الذي خصّص 400 حلقة من برنامجه اليومي ليخيف الأميركيين من غزو الغرباء الذين سيقضون عليهم. ولأن معظم الأميركيين يستقون مواقفهم بناء على إعلامهم، فليس قادم الأيام مليئا بالبشْر.

> لم تكن حادثة بوفالو، إذن، منعزلة، بل الخوف السائد بين الأميركيين حالياً أن ذلك العنف سيكون هو النمط السائد في العلاقة بين الأميركيين

(كاتب سوري في واشنطن)

العربي الجديد
www.alaraby.co.uk
تصدر عن شركة فضاءات ميديا ليميتد (Fadaat Media Ltd)

رئيس التحرير **حسام كنفاني** ■ مدير التحرير **ارنست خوري** ■ المدير الفني **إميل منعم** ■ السياسة **جمانة فرحات** ■ الاقتصاد **مصطفى عبد السلام** ■ الثقافة **نجوان درويش** ■ منوعات **ليال حداد** ■ الرأي **معن البياري** ■ المجتمع **يوسف حاج علي** ■ الرياضة **نبيل التليلي** ■ تحقيقات **محمد عزام** ■ مراسلون **نزار قنديل**

**المكاتب**
■ المكتب الرئيسي، **لندن**
Unit5, Central Park, Central Way, London, NW 10 7FY
Tel: 00442071480366
■ مكتب **الدوحة**
الدوحة ـ الدفنة ـ برج الفردان ـ الطابق العاشر ـ
هاتف: 0097440190600

■ مكتب **بيروت**
بيروت ـ الجميزة ـ شارع باستور ـ بناية west end 33
هاتف: 009611567794 - 009611442047
■ البريد الإلكتروني: Email: info@alaraby.co.uk
■ للاشتراكات: alaraby.co.uk/subscriptions
هاتف: 97440190635+ جوال: 97450059977+
■ للإعلانات: alaraby.co.uk/ads